

حوار مع الكاتب والروائي التونسي إبراهيم درغوثي حول روايته "الزخم... قليلا"

مريـن محمـد عبد الله .ماجستير لسانيات النص .
الزخم... قليلا

/ علاقة نص الرواية بالأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة محليا وإقليميا وعربيا والتي كان بعضها موضوع الرواية ، فهل وظفت الأحداث التاريخية لخدمة نص الرواية كأبي أحداث أخرى ، واستغل تعقيد الأحداث لصنع الجوانب الفنية في نص الرواية ، أم أنكم كنتم تسعون للكشف عن الجوانب المستورة وما لم تقله النصوص المؤثقة وغير المؤثقة عن الأحداث التاريخية للمنطقة عموما ...؟

يمثل اكتشاف الفسفاط في الجنوب التونسي حدثا مهما في تاريخ هذه البلاد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي فقد غير من نمط الإنتاج الرعوي الذي ساد في الجنوب التونسي على مدى تاريخها الطويل وحوله إلى إنتاج شبه رؤسالي كما حول التزنية السكانية لجهة الحوض المنجمي من العشائرية إلى تعدد القوميات والأعراق. فمنذ أن اكتشف الفرنسي " فيليب توماس " في نهايات القرن التاسع عشر هذه المناجم قدر لهذه الأرض أن تعيش تاريخا جديدا يختلف جذريا عن سابق أزمانها وهاهي تصنع حتى زمننا الحاضر تاريخ تونس الحديث. فمن خلال الأحداث التي عاشها الحوض المنجمي في تونس خلال سنة 2008 صار التحول الذي قاد إلى الثورة في هذه البلاد التي انتهت بانتصار ثورة الياسمين على واحدة من أعنى الديكتاتوريات التي عرفها العالم . وهاهي هذه الثورة تبشر بعالم جديد لكل دول العالم الحاملة بالجد الأجل.

كل هذا الزخم الذي عاشته وتعيشه هذه المنطقة من الأرض التونسية حرضني على كتابة تاريخها الحديث الذي امتد على ما يزيد على القرن . وما " وراء السراب ... قليلا " إلا الجزء الأول من رواية مطوّلة مازلت بصدد كتابتها قد تكون ثلاثية أو خماسية على شكل " مدن الملح " التي أرّخ فيها الكاتب عبد الرحمان مليف لصحراء النفط في بلاد الخليج العربي.

لقد قادني البحث في أرشيف " شركة فسفاط قفصة " حاليا التي كانت تسمى في عهد الاستعمار الفرنسي بشركة صفاقس / قفصة إلى اكتشافات هائلة قد لا يكفي عمرا كاملا لتحويله إلى نصوص روائية.

لقد أدخل اكتشاف الفسفاط في هذه الجهة تحويلا جذريا في حياة هذه الجهة بأرضها وناسها وعاداتها وتقاليدها وأخرجها من عالمها الصغير إلى العالم الأرحب. فبينما كانت تعيش عصر القبيلة على مدى أزمان طويلة عند وصول المستكشفين الفرنسيين إليها تحولت بين عشية وضحاها إلى صخب المدينة الأرحب. فقد جاءها رجال فرسا مصحوبين بالآلهم الجهمية التي تثقب الجبال لتحديث فيها أنفاقا تمرّ منها قطاراتهم المحملة بتراب لا يعرفون عنه إلا معنى التراب وبأجناس من البشر ما كانوا يعرفون أنهم يعيشون على وجه هذه البسيطة وبطريقة عصرية في الحياة قلبت حياتهم رؤسا على عقب وحوّلتهم من مجتمع رعوي يعيش على قوت يومه المسروق من الشاة والبعير وخبز الأرض إلى مجتمع مرتبط بمآئنة الإنتاج الرّسالي التي لا ترحم.

هذه العوالم الجديدة التي حولت حياة هؤلاء البشر إلى شبه أسطورة أخرجتهم من الماضي إلى الحاضر هي التي أثبتت عوالم هذه الرواية ودفعت بأحداثها إلى ولوج عوالم اختلطت فيها الواقعية بالخرافة والأسطورة والتاريخ والجغرافيا والماورائيات في نسيج حكائي أردته أن يكون قريبا من الواقع في أحيان وبعيدا عنه في أحيان أخرى حتى لا تتحول الرواية إلى مجرد تعداد لأحداث تاريخية يمكن لأي كانت أن يسجلها في دفتر ترونولوجي .

هي تاريخ لما جرى في هذه البلاد دون أن تكون تاريخا في مفهومه البسيط لأن أحداثها ومجرياتها تتحول بسرعة من الواقع المعيش المسطر على دفاتر الشركة مثلا إلى عوالم عجيبة لا يمكن للعقل أن يقبل بها.

فمنذ البدايات تتأرجح الوقائع التي تنكتب الرواية من خلالها بين المقدس والمدنس، بين الأرضي والسموي، بين الحق والباطل ، بين الواقع حدّ الفجاجة والخيالي حدّ الجنون. ففي هذه العوالم التي تبدأ بنهاية تاريخ وبداية تاريخ آخر تنبني قصة السراب في صحراء البداوة التي اغتصب صمتها ضجيج فرسا القادمة من وراء البحار بدعوى إخراج هذه الجماعة من البشر من الظلمات إلى النور ومن اللاتاريخ إلى التاريخ . هذا التاريخ الذي قاد مجموعة من هؤلاء الناس إلى حروب لا عهد لهم بها تدور وراء جغرافيا بلدانهم وإلى علاقات جديدة مع بشر قادمين من ليبيا والجزائر والمغرب يتكلمون عربية شبيهة بعربيتهم وماهي منها (أمازيغية القبائل والمغاربة البربر) ويدينون بدين ماهو بدينهم (الروامة) من فرسيين وطلبيان ومالطيين وإسبان. كل هؤلاء صاروا يعيشون في عالم واحد صغير هو المنجم المحفور داخل أنفاق الجبل وفي حيز جغرافي لا يتعدى بعض الكيلومترات المربعة يشمل المتاجر والمتاجر وما جاورها من مستلزمات الحياة " العصرية " . كما جعل هؤلاء السكان الأصليين يفتحون على عادات اجتماعية وثقافية لا عهد لهم بها من بينها في المستوى الاجتماعي : المبنى الذي جعلت منه فرسا مكانا للترفيه عن عمالها لكنها أرادت منه في الحقيقة أن يكون مكانا للتفرقة بين عمالها حتى لا تقوم لهم قائمة وحتى لا يتحدوا يوما ما في وجه جبروت رأس المال ولو في شكل نقابة تدافع عن بعض حقوقهم المادية البسيطة في حياة تريمة.

لقد سعت قبل كتابة هذه الرواية إلى تجميع الوثائق المكتوبة (كتب مطبوعة ووثائق غير منشورة)، التي تناولت هذه الفترة بالدراسة سياسيا ونقائيا واجتماعيا أيضا كما وثقت شهادات شفوية من عمال عايشوا أحداثها واعتمدت عليها عند كتابة النص دون أن أقع في التوثيق الفج لأننا لا نكتب من فراغ ولكننا نستوحي الأحداث ونصنع الشخصيات من الواقع ولكننا لا نكتفي به كما هو وإنما نقدم إليه إضافاتنا التي تحوله إلى أدب قد يختلف إن كثيرا أو قليلا مع الوقائع الحقيقة الحادثة. فكثيرا ما تصبح الروايات سجلات لتاريخ الشعوب تؤرخ لها وتقول ما سكت عنه مدونو السلاطين والساسة.

2/ هل تعتبرون المكان (الصحراء و المنجم) الذي تدور حوله أحداث نص الرواية نموذجا أم استثناء ؟ (أي مثالي لصنع العمل الفني و الروائي ، أم أن الرواية هي التي تصنع القيمة الفنية للمكان أيا كان ، ويتم اختيار أماكن بعينها تساعد على ذلك و أخرى لا تساعد...) .

كل عمل أدبي يتطلب شروطاً فنية لإنجاحه من شخصيات ومكان وزمان. ولعل رواية " وراء السراب ... قليلاً " استدعت الصحراء والمنجم لتتّم هذه الشروط. فالجبال التي اكتشف فيها مناجم الفسفاط تتأخّم الصحراء التونسية وتندمج فيها مكونة مناخاً شبه أسطوري في الجنوب الغربي لتونس أتاح لشخصيات هذه الرواية أن تتبلور على هواها وتنمو في مناخها الطبيعي. وقد انطلق العمل من الصحراء التي احتضنت هجرة الزنوج " المحررين " من العبودية بمرسوم سلطاني فلم يقدروا على المحافظة على حريتهم التي وهبها لهم " باي " تونس وظلّوا هائمين على وجوههم صمّاً بكما ، عمياً لا يفقهون إلى أن عادوا من جديد لعبودية أخرى مدموغة هذه المرة بمرسوم رأس المال الاحتكاري الذي جاء على رؤوس حراب المستعمر الفرنسي لتونس هذه المرة.

إن الرواية كالحياة لا تعيش إلا في مناخاتها الخاصة لتصنع نصّيتها التي تميّزها عن غيرها من النصوص المكتوبة. ولعل المكان واحد من أهم هذه الشروط الفنية شأنها شأن زمن الوقائع والأحداث. فكلما كان اختيار الأمكنة موفّقاً أكثر أتحنا إمكانية أكبر لرواية الرواية.

إن الحيز المكاني مخصوص في هذه الرواية، فهو مسيّج بالصحراء من جهاته الطبيعية والنفسية أيضاً حتى يوحى للقارئ باغتراب لإنسان في هذه البيئة الطاردة عادة للبشر. ولكنها في هذه المرة أصبحت جماعة لشتات من الخلق جاؤوها من كل أصقاع الدنيا للفوز بخيراتها التي لا تعني شيئاً مذتوراً لسكانها الأصليين " مجرد تراب بلا قيمة " ولكنها تعني الكثير للمستثمرين الفرنسيين الذين حولوا جزءاً منها إلى " باريس صغيرة " في قلب الصحراء كما كانت تسمى مدينة " المتلوي " عاصمة المناجم في ذلك العهد.

إن المكان في هذه الرواية ذو خصوصية كبيرة ، فلا يمكن لأحداثها أن تدور في أي فضاء آخر لا يتشابه معه حد التطابق وبهذا يمكن اعتمادها كنموذج استثنائي في الروايات العربية شأنها شأن الروايات التي تدور أحداثها في بيئة بحرية مثلاً أو في عوالم الفضاء.

3 / وما الجوانب الفنية التي مثلتها عناصر بيئة الصحراء في عملكم الروائي ؟

الصحراء عالم بذاته ضاحٍ بالحياة في سكونه الظاهر ، موات ولكنه حي في أبهى تجليات الحياة لمن يعرف أسرارها ومكنوناته. ولعل أجمل مظهرات الحياة في الصحراء هذه الواحات التي نبتت في قلبها من أقصى المغرب حتى تخوم البحر الأحمر في مصر. واحات يجد فيها المسافر راحته كما تجد فيها المطايا مشربها ومأكّلها ومستقر لها.

في مثل واحدة من هذه الواحات التي لا تبعد كثيراً عن موقع المنجم المستكشف تدور أحداث رواية " وراء السراب ... قليلاً " فهي تكاد تكون الخط الموازي له الذي لولاه لانعدمت الحياة داخل مدينته الجديدة التي بنيت ليستقر فيها العمال القادمون من كل بقاع الأرض.

إن الصحراء بيئة قاسية تكاد تستحيل فيها الحياة خاصة لمن يظأ أرضها لأول مرة وقد عبر سارد الرواية عن ذلك وهو يقدمها لمريديها الجدد عارضا عليهم وحشيتها وعقاربها وحياتها التي لا ترحم ومع ذلك ازدانت هذه الأرض بالحياة بصخبها وصمتها،

بجلوها ومرها، بعداباتها وأفراحها. لقد كان هذا المكان الوحشي بجماله الجرداء ووديانه السحيقة مسرطاً لحياة جديدة صنعتها مدينة المستعمر الفرنسي، فجادت الجبال بخيراتهما على الرجال البيض ذوي العيون الزرقاء وبخلت على ذوي السواعد المفتولة الذي استخرجوا الخيرات من باطنها ولكنهم لم ينعموا بفرصة الحياة. لذلك جاء تمردهم مدمراً للجميع، للشركة أولاً ولهم في نهاية المطاف بعد أن خسروا معركتهم النقاية مع أرباب العمل.

4/ تكسب النصوص الروائية نصيتها من أبعادها الفنية أو من عناصرها ومكوّنها السردية، فهل تضعون وتفترضون نصية لنصوصكم (فنيا وسرديا) قبل البدء في الكتابة، أم أن النص هو الذي يصنع لنفسه نصية تميزه وترفعه عند إنجازه؟

في العادة لا أضع تخطيطاً مسبقاً عندما أبدأ في كتابة رواياتي لأنني أعتبر هذه التخطيطات كاجها للجماح الإبداع، ومع ذلك فأنا لا أكتب من فراغ ولا من المذاكرة وحدها وإنما أسعى دائماً إلى تجميع أكثر ما يمكن من المعطيات على الموضوع الذي سأتناوله في رواياتي لأن الروايات حسب ظني واعتقادي ما عادت تلك الحكاية التي يسعى الكاتب من ورائها إلى إمتاع المتلقي بقصة تمتعه فقط لا غير وإنما صارت الأعمال الروائية مشاريع إبداعية يتقاطع فيها السرد بالشعر والعلوم والفنون والموسيقى والتاريخ ويتقابل داخلها اللاهوت بالناسوت والسياسة بالاقتصاد والتصرف في شؤون العباد والبلاد.

الرواية هي ذاك الغول الذي التهم كل الفنون الإبداعية الأخرى. فهي كما عرّفها النقد الحديث، فنا إمبريالياً احتوى داخله كل الفنون الإبداعية الحديثة.

لهذا وغيره أصبح الروائي الحديث مطالباً بالخروج عن الكتابة الخطية التي سادت زمناً طويلاً حتى يفني بشروط الكتابة الجديدة التي هيمن فيها التجريب بشقيه الغربي والشرقي على شاكلة الرواية الجديدة في فرنسا أو بالطريقة العربية التي استلهمت طرائق السرد التراثية.

من هنا ما عاد في مقدور الروائي أن يخطط لنصه لأنه لن يقدر على السيطرة على شخصياته التي صبحت صعبة المراس يسهل عليها التمرد على خالقها فتخرج بسرعة عن الخطوط التي قدرها لها لتمشي في مسالكها هي. مسالك قد تكون غير مقدر لها السير فيها.

هي ذي الرواية التي كتبتها وسأكتبها. فكلماً أوغلت في عوالمها كلما اكتشفت أكثر جمالية متاهاتها العجيبة حتى أنها تجعلك في أحيان كثيرة تعجب من نفسك وتطرح سؤالك المحير: هل حقاً أنا من كتب هذا النص؟

5/ الملاحظ في الرواية بعض التقنيات الموروثة من التراث الأدبي (كالتبويب، والعنونة، والقصص المدرج...)، ألا ترون أن ذلك يكبح من عملية التحديث على مستوى الكتابة عموماً، وأن الموروث اللغوي المتمثل في اللغة العربية الفصحى كافٍ للحفاظ على جانب الأصالة وبعد التأصيل في العمل الأدبي عموماً، بوصف روايتكم تراوج بين الحداثة والأصالة...؟

ظل النقد الأدبي العربي، إلا القليل النادر منه، يعتبر الإبداع القصصي والروائي العربي الحديث محاكاة للكتابة القصصية والروائية الغربية التي وفقت على الثقافة العربية خلال نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وواصل هذا الزعم اكتساحه لساحة النقد حتى نهايات القرن العشرين عندما ظهرت مدرسة نقدية عربية حديثة تنظر للرواية التجريبية وتبشّر برواية تستلهم أساليب السرد العربية القديمة وتعلن عن أسماء كتابها شرقا ومغربا من جبال الغيطاني إلى سالم حميش والطاهر وطار وصلاح الدين بوجاه وغيرهم ...

شخصيا، آمنت بهذه الأساليب السردية القديمة منذ بداياتي المبكرة فقد ظهرت بواكير تلك الكتابة منذ مجموعتي القصصية الأولى الصادرة سنة 1989. ولكن تجذر تلك الكتابة ظهر أكثر مع رواياتي من الدراويش يعودون الى المنفى (1992) حتى مجرد لعبة حظ (2004) و ما لم يقله الأصهباني في كتاب الأغاني (2010).

إن أساليب الكتابة التراثية في الإبداع القصصي والروائي العربي الحديث باب من أبواب التحديث التي سعى إليها الكتاب العرب الذين آمنوا بأن النص الغربي وحده - في شكله على الأقل - ما عاد قادرا على تبليغ رسالتهم فعادوا بالكتابة القصصية مثلا إلى منابعها الأولى واستثمروا تقنياتها وفنياتها في التبليغ من متن وهامش وخبر وعنونة وطرفة وعنونة وتبويب وغيرها ، كل ذلك من أجل الارتقاء بالنص والخروج به من ضيق التجربة الغربية التي ما عادت تفي بحاجة الكتابة السردية بعدما استنفدت كل ما لديها من جماليات القول. لذلك سعى كتاب العالم وجدوا في البحث عن أفانين جديدة تسعف ذائقتهم الإبداعية في الشكل والمضمون. وبذلك ظهرت الكتابة الواقعية السحرية في أدب أمريكا اللاتينية وإفريقيا السوداء واليابان كما ظهرت أساليب جديدة وفنيات مستحدثة في الكتابة التجريبية الغربية المراد منها ضخ نسغ جديد في شريان الرواية العالمية.

من هذا الباب كان ولوجي لعالم القصص العربي القديم في أشكاله المختلفة من القصص القرآني حتى قص المجان والكهان، ومن كتب السيرة حتى المدونات التاريخية الكبرى وأخيرا وليس بآخر من كتب الرحلات حتى مجاميع قصص العرب في الجاهلية والإسلام دون أن أنسى في هذا الخضم المقامات وكتب السيرة وخاصة مطولة ألف ليلة وليلة.

فمن خلال هذه المدونات العربية اكتشف كنزا ظل مغمورا على الكتاب إلا من رحم ربك ومعينا لا ينضب من أساليب الكتابة لو عرفنا قدره لأضفنا للإبداع العالمي الكثير. لذلك حاولت قدر جهدي الاستثمار في هذا الميدان علني ألفت إليه الانتباه وأعرض غيري عليه.

إن تقنيات الكتابة التقليدية المتوارثة من الأساليب القديمة في الكتابة العربية جزء من التجديد في الكتابة التجريبية العربية تدفع بالنص الروائي إلى حداثة تتجاوز به الكتابة التقليدية الذي ظل يراوح فيها ولا يكاد يبرحها. هي أساليب تعيد هذا النص الإبداعي إلى أصالته التي طالما حلمنا بها.

إبراهيم درغوثي

تونس.

28. 04. 2011.